العدد 2455 - السنة التاسعة
الأحد 24 رجب 1437 - الموافق 1 مايو 2016
Sunday 1 May 2016 - No.2455 - 9th Year
إعداد : ياسر السيد

الاعتصام بحبل الله ... منجاة

الاعتصام شوعان: أن تعتصم بحبل الله، وأن تعتصم بالله، بينهما فرق دقيق، أن تعتصم بحبل الله أن تهتدي بالقرآن، القرآن يدلك على سبل سلامتك، وسبل سعادتك، الاعتصام بالقرآن اعتصامٌ بالنور الإلهي، اعتصامٌ بمنهج الله عز وجل، اهتداءٌ بهديه، سيرٌ على طريقه.

الإعتصام بحبل الله هو أن تهتدي بالقرآن

الاعتصام بحبل الله اعتصام معرفي، أما الاعتصام بالله فأن تستعين به، فتغدو قويا، أن تستعين به فتغدو حكيما، أن تستعين به وأن تستعين به فترى عدوك صغيرا، الاعتصام بالله، بقدرته، بتوفيقه، بتأييده، بنصره، الاعتصام بحبل الله اعتصام معرفي، أما الاعتصام بالله فاعتصام بقوته، اعتصام بحكمته، اعتصام بحفظه، فالآيات متنوعة قال تعالى:

[واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً]
[سورة آل عمران الآية: 103]

وهناك آيات كثيرة:

[واعْتَصَمُوا بِاللَّهِ]
[سورة النساء الآية: 146]

الاعتصام بحبل الله أن تهتدي بهديه، أن تتحرك وفق منهجه، أن تستنير بنوره، أن تحقق ما أمرك به، اعتصام معرفي، الاعتصام بحبل الله اعتصام معرفي، أما الاعتصام بالله فاعتصام بقوته، ونصره، وتأييده.

النبي صلى الله عليه و سلم معصومٌ بمفرده بينما أمته معصومةٌ بمجموعها : واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة للسادة المفسرين آراءٌ متباينة منها: الاعتصام بدين الله، هذا الدين جملةً وتفصيلا، بما في كتابه وبما في سنته، الاعتصام بحبل الله الاعتصام بدين الله، والاعتصام بحبل الله الاعتصام بالجماعة.

((عليكم بالجماعة، وإيَّاكم والفُرقة، فإنَّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاسية))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

أن تعتصم بجماعة المسلمين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم طمأننا أنه:

((لن تجتمع أمتي على الضلالة))

[الطبراني عن ابن عمر]

النبي صلى الله عليه و سلم معصومٌ بمفرده، بينما أمته معصومةٌ بمجموعها.

((لن تجتمع أمتي على ضلالة))

للتوضيح: نشر كتاب، لا يوجد فيه خطأ، النصوص صحيحة، الأدلة قوية، وفق منهج الله، وفق سنة رسول الله، وفق مقاصد الشريعة، يُنشر ويباع منه بالآلاف ولا أحد ينطق بكلمة، فإذا نشر كتاب فيه ضلالات تقوم الدنيا ولا تقعد.

لذلك من حكمة الله عز وجل ومن فضله أنه عصم الأمة عن أن تجتمع على خطأ، هي معصومة بمجموعها لا بأفرادها، بينما النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ بمفرده.

الجماعة لا تعني الكثرة تعني من كان على الحق المبين :

لذلك

[واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً]

الجماعة تعني من كان على الحق المبين

اعتصموا بدين الله جملةً وتفصيلا، واعتصموا بجماعة المسلمين، وهل تصدقون أن الجماعة قد تكون واحدا؟ الجماعة من كانت على حق، جمعا غفيرا، أو قلة قليلة.

((ولا تزال طائفة من أمتي على الحق، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان]

أي بكل عصر هناك حق، قد يتسع، قد تتسع رقعته، وقد يقل، فالجماعة لا تعني الكثرة تعني من كان على الحق المبين، ولحكمة الله البالغة في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل جمع، وفي كل مؤسسة هناك إنسان مستقيم، حجة على من حوله، يأسوا الأماكن، يأسوا الظروف، إنسان مستقيم يقيم الحجة على من حوله، والظروف نفسها.

هناك بلاد عليها ضغوط لا يعلمها إلا الله، أحد هذه البلاد يقيم منهج الله، هذا البلد الصغير الضعيف لا يوجد به خمر، ولا مقهى، ولا انحراف، هذا البلد الضعيف حجة على من حوله، لذلك دائما الحجة قائمة على العباد.

القصة المعاصرة وقعها أشد في النفس لأن الذي يعاصرك واقعٌ تحت الظروف نفسها :

بالمناسبة القصة القديمة لها وقع، أما أنا فأرى أن القصة المعاصرة وقعها أشد، السبب هذا الذي يعاصرك واقعٌ تحت الظروف نفسها، والإغراءات نفسها، والعقبات نفسها، والصوارف نفسها، واستقام على أمر الله، بل إن الأنبياء بشر، تجري عليهم كل خصائص البشر إن الله سبحانه وتعالى لا يكلفك ما لا تستطيع

ولولا أنهم بشر وتجري عليهم كل خصائص البشر لما كانوا سادة البشر، النبي يغضب، ويرضى، ويشتهي، ويحب، ويتمنى، لأنه بشر، ولأنه تجري عليه كل خصائص البشر، لذلك هو سيد البشر.

فالقصة المعاصرة لها وقع كبير جدا، كيف استطاع هذا الإنسان أن ينجو من كل هذه الضغوط والإغراءات والصوارف والعقبات؟ إذا هو حجة على من حوله، لا تتصور أن الله سبحانه وتعالى يكلفك ما لا تستطيع.

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا
[سورة البقرة الآية: 286]

والاستطاعة لا تحددها أنت يحددها الله عز وجل، فإذا أمرك بغض البصر بإمكانك أن تغض البصر، فإذا توهمت أنك لا تستطيع غض البصر اعلم يقينا أنك لا تريد أن تغض البصر، الذي تدعي أنك لا تستطيعه هو الذي لا تريده.

على الإنسان الاعتصام بعهد الله و الاعتصام بجماعة المؤمنين :

أيها الأخوة، على الإنسان الاعتصام بدين الله عامة، والاعتصام بجماعة المؤمنين، وأن يتبع سبيل المؤمنين، المؤمنون لا يكذبون، المؤمنون لا يحتالون، المؤمنون لا يدلسون، المؤمنون لا يخونون، المؤمنون لا يخدعون، هناك صفات للمؤمن، الذي يميزه عن بقية الناس ليس العبادات ولكنها المعاملات، هناك مبادئ وهناك قيم تحكمه.

((الإيمانُ قَيْدُ الفَتْكِ، لا يَفْتُكُ مؤمن))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

حبل الله المتين هو الإعتصام بالقرآن فلذلك الاعتصام بجماعة المؤمنين، والاعتصام بعهد الله، هذا العهد الذي قطعته على نفسك في عالم الأزل. أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى [سورة الأعراف الآية: 172]

الاعتصام بحبل الله، والاعتصام بالقرآن لأن النبي وصفه بأنه حبل الله المتين، والاعتصام بأمر الله ونهيه، هذه المعاني التي قالها المفسرون في الاعتصام بحبل الله ، أما الاعتصام بالله فأن تستعين بقوته، أن تستعين بجبروته، أن تستعين بعلمه، أن تستعين بتوفيقه، بحفظه، الآية الكريمة الأصل في هذا اللقاء الطيب:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [سورة آل عمران الآية: 102]

حق التقوى أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تغفل عنه، وأن تشكره ولا تكفره.

اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ × وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً [سورة آل عمران]

وحبل الله كما تبين قبل قليل التمسك بدين الله، بجماعة المؤمنين، بعهد الله، بالقرآن، بالأمر والنهي وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [سورة آل عمران]

الاعتصام بالله اعتصام معرفي:

الآن الآية الثانية بمنحى آخر:

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ
[سورة آل عمران الآية: 101]

بحبل الله اعتصام بياني، اعتصام معرفي

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ بقوته، بجبروته بقدرته، بغناه، بعلمه:

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [سورة آل عمران]

الكافر لا يضل الإنسان أما الخطير فهو المنافق :

المنافق خطير لأنك تظنه مؤمن وهو كافر

أيها الأخوة، الآية الثالثة:

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [سورة النساء الآية: 145]

لأن المؤمن واضح، والكافر واضح، الكافر رفض الدين، رفض الآخرة، آمن بالدنيا واضح، الكافر لا يضلك، قال لك: أنا لست مؤمنا، أما الخطير فهو المنافق تظنه مؤمنا وهو كافر، المنافق في بعض الآيات كافر لكنه ذكي جدا، في مجتمع المؤمنين من أجل مصالحه يتزيا بالزي الديني، يطرح أفكارا دينية كي تقبله، كي ينتفع بك، قال:

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً [سورة النساء الآية: 145]

من آمن بالله هدي إلى الصراط المستقيم : من آمن بالله هدي إلى صراط المستقيم

ثم قال تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ [سورة النساء الآية: 146]

تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً [سورة النساء]

أيها الأخوة، آية رابعة:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً × فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً.

[سورة النساء]

الله عز وجل تولى حفظ النبي الكريم وعصمه من الناس :

أيها الأخوة، هذه الآيات، أما الأحاديث فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحْرَسُ ليلا، حتى نزل ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

[المائدة: 67]

فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة، فقال لهم: يا أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني الله)) [أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

الحقيقة هناك رجل ألماني سبب إسلامه هذا الحديث، لو كان الذي يقوله للناس ليس قانعا به لا يمكن أن يصرف حراسه، ما دام إيمانه بالله عز وجل إيمانا في أعلى مستوى الله قال له:

((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ))

هذه خصوصية، ذلك لأن اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم هو عدوان على الذات الإلهية، لذلك الله عز وجل تولى حفظه، عصمه من الناس، النبي يحارب، يكذب أما لا يقتل، فإذا قتل النبي فقد انتهت رسالته ومهمته، بعد انتهاء المهمة اليهود قتلوا أنبياءهم، أما مادام في صلب الدعوة، ما دام في طور الدعوة، فالله عز وجل عصمه من أن يقتل: ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة، فقال لهم: يا أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني الله))

النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم : أخواننا الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، وقد تعلمنا في الجامعة أن النص النبوي أفصح نص على الإطلاق بعد القرآن الكريم ، وقد قال عن نفسه: ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)) [أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

هذه بيد أني من قريش أسلوب بلاغة اسمه تأكيد المدح بما يشبه الذم، تقول: فلان كريم إلا أنه شجاع، هذا إلا أنه تتوهم أنه سيذم، وقد أخذ هذا النبي الكريم هذا الأسلوب:

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)) [أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبيلة.

الدعاء مخ العبادة :

الدعاء التالي من أدق الأدعية:

((اللهم! إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها ألفتي، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء اللهم أعطني إيمانا صادقا، ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، ومرافقة الأنبياء، والنصر على الأعداء. اللهم أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي، وضعف عملي وافتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف عنه عملي، ولم تبلغه نيتي من خير وعدته أحداً من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فإني أرغب إليك فيه))

[أخرجه الترمذي وابن خزيمة في صحيحه عن عبد الله بن عباس]

الدعاء مخ العبادة

طموح النبي ليس له حد.

((اللهم وما قَصُرَ عَنْهُ رَأيي، وَلَمْ تَبْلُغه مَسألتي، ولم تبلغه نيتي من خير وعدته أحداً من عبادك، أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألكَه برحمتك يا ربَّ العالمين. اللهم يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد أسألك الأمنَ يومَ الوعيد والجنةَ يومَ الخلود، مع المقربين الشهود، الركَّع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيمٌ ودود، وإنك تفعل ما تريد، اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين، ولا مضلين، سلما لأوليائك، وحربا لأعدائك، نحبُّ بحبك مَنْ أحبَّك، ونعادي بعداوتك مَنْ خالفك اللهم هذا الدُّعاءُ وعليك الإجابةُ اللهم هذا الجهدُ، وعليك التكلانُ، اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا من بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في مخي، ونورا في عظامي، اللهمَّ أعظم لي نورا وأعطني نورا، واجعل لي نورا، سبحانَ الذي تعطف بالعز وقال به، سبحانَ الذي لبس المجدَ وتكرَّمَ به، سبحانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلا لَه، سبحانَ ذي الفضل والنِّعَم، سبحانَ ذي المجد والكرم، سبحانَ ذي الجلال والإكرام))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس]

هل بعد هذه الفصاحة من فصاحة؟

هذا الدعاء والدعاء مخ العبادة، أتمنى أن يكون للمؤمن ساعة يناجي بها ربه، ناجه في الطريق وأنت تمشي، وأنت في مركبتك، وقبل أن تنام، وبعد أن تستيقظ، بمناجاة الله عز و جل شيء مسعد جدا.

من الأدعية الشهيرة:

((اللهمَّ أصْلح لي ديني الذي هو عصْمةُ أمري))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

((الإيمانُ قَيْدُ الفَتْكِ ، لا يَفْتُكُ مؤمن))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

((اللهمَّ أصْلح لي ديني الذي هو عصْمةُ أمري، وأصلح لي دُنْيايَ التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شرّ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

دروس من أوائل آيات سورة المجادلة

نحن في هذه السورة – وفي هذا الجزء كله تقريبا – مع أحداث السيرة في المجتمع المدني ، مع الجماعة المسلمة الناشئة : حيث تربى وتقوم ، وتعد للنهوض بدورها العالمي ، بل بدورها الكوني ، الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة ، في نفوس هذه الجماعة ، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور ، ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . . وهو دور ضخم إذن يقتضي إعدادا كاملا .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم ، ناسا من الناس ، منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم ، واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة ، وخلصت نفوسهم لها ، ووصلوا . . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير : واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود ، فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله في الكون : لا يجدون في أنفسهم عوجا عنه ، ولا يجدون في خطاهم تخلفا عن خطاه ، ولا يجدون في قلوبهم شيئا إلا الله . . كانوا كما جاء عنهم في هذه السورة:(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون) . .

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد – وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب – حتى قبل الفتح – ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي ، ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة ، كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل في القلوب ، وتربص بالفرص ، وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين ، سواء معسكرات المشركين أو اليهود ! ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهودا ضخمة ، وصبرا طويلا ، وعلاجا بطيئا ، في صغار الأمور وفي كبارها ، . كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الإسلام ، وقام بها رسول الإسلام [ص] بناء النفوس التي تنهض ببناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ، وتقوم على منهج الله ، تفهمه وتحققه ، وتنقله إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة ، لا في صحائف وكلمات .

ونحن نشهد في هذه السورة – وفي هذا الجزء كله – طرفا من تلك الجهود الضخمة ، وطرفا من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس ، وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات : كما نشهد جانبا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة : وهو يصنعها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده – سبحانه – معها في أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها : وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره : وأخذها في حماه وكنفه ، وضمها إلى لوائه وظله : وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله ، وتنتسب إليه ، وتؤلف حزبه في الأرض ، وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعا .

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة في تاريخ البشرية ، فترة اتصال السماء بالأرض في صورة مباشرة محسوسة ، ومشاركتها في الحياة اليومية لجماعة

بها . والله معهم أينما كانوا: (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم) . . وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره ، كما تملؤه برقابته واطلاعه .

وهذا التوكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون في خلواتهم لتدبير المكايد للمسلمين ، وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف ، وأن عين الله مطلعة عليهم ، ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة ، وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهي للمسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى ، وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد في تربية هذه النفوس المؤمنة : فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله [ص] ومجالس العلم والذكر ، كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول [ص] والجد في هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ! ويتآمرون معهم ، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين ، وتصورهم في الآخرة كذلك حلافين كذابين ! يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله ، كما كانوا يتقون بهما في الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأذلين وأنهم هم الأخسرون ، كما كتب أنه ورسله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم ، الذي كان بعض المنتسبين إلى الإسلام – وبعض المسلمين – يستعظمه ، فيحافظ على مودته معهم ، ولا يدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت راية الله وحدها ، والاعتزاز برعاية الله وحده ، والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التي يصنعها على عينه ، ويهيئها لدورها الكوني المرسوم .

وفي ختام السورة تجيء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التي كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار ، والتي كانت الآية الكريمة تشير لها كي ينتهي إليها أولئك الذين ما زالوا بعد في الطريق !

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ،)الخ الآية . . . كما وردت في أول هذا التقديم .

الدرس الأول:1 – 4 إبطال الظهار

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم) .

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول:أنت علي كظهر أمي ، فتحرم عليه ، ولا تطلق منه ، وتبقى هكذا ، لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ؛ ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر ، وكان هذا طرفا من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التي تشير إليها هذه الآيات ، ولم يكن قد شرع حكم للظهار ، قال الإمام أحمد:حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب ، قالا:حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني معمر ابن عبدالله بن حنظلة ، عن يوسف بن عبدالله بن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة ، قالت:في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت:كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت:فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب ، فقال:أنت علي كظهر أمي ، قالت:ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي ، فإذا هو يريدني عن نفسي ، قالت:قلت:كلا والذي نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت:فوثبني ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت:ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله [ص] فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت:فجعل رسول الله [ص] يقول:« يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » قالت:فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ؛ فتغشى رسول الله [ص] ما كان يتغشاه ، ثم سري عنه ، فقال لي:« يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا » . . ثم قرأ علي –:(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) . . إلى قوله تعالى: (وللكافرين عذاب أليم) . . قالت:فقال لي رسول الله [ص]:« مريه فليعتق رقبة » . قالت:فقلت:يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال:« فليصم شهرين متتابعين » . قالت:فقلت:والله إنه لشيخ ما له من صيام ، قال:« فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر » . قالت:فقلت:والله يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت:فقال رسول الله [ص]:« فإنا سنعينه بعرق من تمر » . قالت:فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر ، قال:« قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيرا » . قالت:ففعلت .

فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله [ص] والمرأة التي جاءت تجادله فيه ، وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات ، ليعطي هذه المرأة حقها ، ويريح بالها وبال زوجها ، ويرسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية !